منوعات

الاتجاهات الجديدة في القصة السوفياتية

عرض
خيرى حماد

هناك حقيقة واقعة ، لا مريه فيها ولا شك ، وهى ان القصة السوفياتيه ، اخذت تمر فى الحقبة الأخيرة ، اى بعد وفاة ستالين ، بمراحل من التبدل البطىء ، تميزت بالنشاط والحيوية فى التركيز على احداث الحياة العاطفيـــة والاقلال من الاهتمـــام بالمواضيع السياسية او باوضاع الصناعة والزراعة ، مما يشير بوضوح الى حيـــاة الانسان الخاصة عادت تحتل مكانتها فى الأدب السوفياتى الحديث بعد ان كانت قد فقدتها فى عهد ستالين .

ولم يعد كتاب القصة الجدد فى الاتحاد السوفياتى يعنون كاسلافهم ، بالقضـايا الجماعيه ، والجوانب العامه للحياة ، قدر عنايتهم بالحياة اليومية الخاصة وما يقع فيها من حوادث صغيرة ، وما تتأثر به من انطباعات آنيه . وهكذا راحوا يبعثون الى الوجود ، تقاليد تشيكوف وتيرجنييف وبورتيس من عمالقة القصة العالمية ، بما تضمه من اهتمام بالتنهدات والابتسامات ، وصور الطبيعه الموضوعيه .

وقد وقع هذا الانقلاب فى القصة السوفياتيه فى السنوات التى تلت موت ستالين . فلم يعد للقوالب القصصيه ، «المصبوبه» والجامدة التى تميزت بها القصص القديمة التى وضعت فى عهده والتى باتت الآن تمثل الأدب الكلاسيكى ، وجــــود فى القصص الجديدة التى تمثل مفاهيم الواقع الاشتراكى فى كثير من الانطلاق والتحرر ، والتى تمثل قصة « ليس بالخبز وحده » لدودينتسيف ، اروع صورة لها .

ولا يعنى هذا القول . ان كل ما تخرجه المطابع السوفياتيه اليوم ، هو من هــذا الطراز الثائر على التقاليد القديمة ، المتجدد فى صوره وموضوعاته ، فهنـاك قصص مازالت تظهر فى الاتحاد السوفياتى ، متشابهة فى موضوعاتها وصورها ، للقصص التى صدرت فى عهد ستالين ، والتى تتناول مواضيع المزارع الجماعية والمشاكل الزراعية والمصانع والمكاتب فى صـــور مبســـطة سهلة على الحل ، تدعم القيم الاشتراكيه وتسندها . لكن قصص التحليل النفسى اخذت الآن تحتل مكانها فى الأدب السوفياتى الجديد ، على أيدى روادها من امثـال سيرجى انطونوف وفيرا بانوفا ، كمــا راح

قصصيون آخرون من أمثال يورى كازاكوف ويورى ناجيبين يطلعون على القراء ، بقصص تتناول الجنس فى صور نقية ومترفعة .

ولا يحتل كازاكوف وناجيبين منزلة عالية بين القصصيين السوفيات اذ ان عدد قرائهما محدود فى العالم الاشتراكى. ولكن المهتمين بشؤون الأدب من الروس وغيرهم، يتابعون كتاباتهما باهتمام زائد ، اذ انهما يمثلان فى رأيهم شيئا جديدا ، لا يتفق مع المعايير الحربية العامة ، وقيمها ، وهما لا يقفان موقف المعارضة الصريحة للمفاهيم الحربية وقيمها ، ومعاييرها ، وانما يتجاهلانها كل التجاهل ، ويغوصان فى اعماق النفس الانسانية ، مصورين مشاعرهما تصويرا فيه الكثير من الروعة والاجادة ؛ ولذا يمكن اعتبارهما خير ممثلين للاتجاهات الجديدة فى الأدب السوفياتى التى تميزت بالثورة الكاملة على كل ماهو تقليدى وقديم .

***

ولد يورى كازاكوف فى مدينة موسكو فى عام ١٩٢٧ . وهوى الموسيقى منذ نعومة اظفاره . فدرسها دراسة جادة ، وانضم كعازف الى احدى الفرق الموسيقيةالمصورة. ولم يقبل على كتابة القصص الا فى عام ١٩٥٧ ، حيث نشر مجموعة صغيرة من القصص القصيرة فى بعض المجلات الأدبية الشهرية ، كما اصدر مجموعتين قصصيتين ، أولاهما باسم « مانكا » فى عام ١٩٥٨ والثانية باسم «فى محطة القطار» فى عام ١٩٥٩ .

وتمثل عالمية الشخصيات التىضمنها قصصه القصيرة هذه ، مخلوقات مشوهة سواء أكانت بشرا أم من الحيوانات ، قدر لها أن تواجه الحياة وقد اصيبت باحدى العاهات . وفى هذا المنطلق تكون عاطفة الاشفاق على بطل القصة ، الصورة الغالبة على قصصه كلها .

ففى قصة « مانكا » التى صدر بها مجموعته الأولى ، يرسم كازاكوف لنا فتاة يتيمة فى الرابعة عشرة من عمرها ، نحيلة الجسم ، عجفاء القوام ، قبيحة الصورة ، وهى تعمل فى توزيع البريد فى منطقة قطبية نائية ، تقع على ساحل المحيط المتجمد الشمالى ، وقد تباعدت مساكنها ، منتشرة على مساحة شاسعة من الأرض . وتعجب الفتاة لسوء حظها ، بيرفلى ، وهو أجمل شباب المنطقة كلها ، واكثرهم اقداما وشجاعة ، وتعرضا لمغازلة الفتيات . وسرعان ما يتحول الاعجاب الى حب طاغ من جانب واحد ، هو جانب الفتاة ليس الا ، اذ أن فتاها بيرفيلى لا يعرف عنه شيئا ، وقد انصرف عنه ، بحبه لفتاة رائعة الجمال من فتيات المنطقة تدعى ليتكا .

لكن ليتكا تصد فتاها ، وتمنعه ، وفى ذات يوم ، وجهت اليه عبارات مهينة ، فثارت ثائرته ، وراح الى البحر يحاول أن يستقل زورقا ، يقتحم به عباب الموج الزاخر وسط عاصفة هوجاء . وتلقاه مانكا ، وهو يكاد يمضى فى زورقه ، فتحاول صده عن بغيته ، ولكنه يزداد اصرارا ، ولا ترى مندوحة لها عن مرافقته فى الزورق . ويصبح الزورق كريشة تتقاذفها الأمواج وسط العاصفة المزمجرة . وسرعان ماينقلب

بهما القارب ، ويشرفان على الغرق ، لولا أن قذفت بهما الأمواج على ساحل غير مطروق ، ولا أثر فيه لحياة . وفجأة يجدان نفسيهما أمام كوخ ، ليس فيه انسان ، فيلجآن ليجففا ثيابهما وليحتسيا بعض الفودكا .

ويتحقق لمانكا حلمها داخل الكوخ ، فيحس بيرفيلى أخيرا بوجودها كامرأة الى جانبه ، وسرعان ما يقبل عليها محاولا غنائها . لكن الفتاة ، وقد فوجئت بهذا الحب المباغت الذى لم تكن تتوقعه حتى فى أحلامها ، تدفعه عنها ، وتخرج مخلفة اياه فى الكوخ . وهنا تنتهى القصة ...

ولا يوضح لنا كاراكوف السبب فى هذا التحول من جانب الفتاة ، كما لا يحاول أن يلقى أى ضوء على ما سيقع فى المستقبل . فهو يترك الاحتمال بعودتهما الى اللقاء فى الكوخ قائما ، كما يترك لنا مانكا ، وهى تواجه وضعا نفسيا مغلقا ومبهما لا يستطيع المرء تصويره الا بانه مزيج من مشاعر الفزع والسرور والشعور بالخزى .

ونحن لا نرى فى هذا الموقف اى تحليل منطقى او معقول ... فالفتاة تتحرق شوقا الى فتاها ، وعندما تصبح أحلامها وشيكة التحول الى واقع ، تصاب بعقدة الفزع ممزوجة بشىء من الرضى ، والغضب ، والرغبة فى الانتقام . ونحن لا نستطيع فى كل هذا الا أن نستنتج بان الكاتب يرى فى الحياة شيئا مغلقا ، وغنيا بالمفاجئات . اما القلب البشرى ، فهو فى رايه قلب ومندفع . وهو يكتفى بسرد ما يحس به تاركا للقارىء نفسه اصدار الاحكام الخلقية من اعجاب أو ملامة .

***

وقد اتهم النقاد السوفيات كاراكوف بالتشاؤم ، وكانوا على حق فى اتهامهم هذا، اذ انه يبدى فى مختلف القصص التى تضمنتها مجموعتاه ، احساسا صادقا برؤية الامور تسير على غير ما يهوى الانسان ويشتهى . فهو فى قصته « بيت تحت الهاوية » يتحدث عن شاب يكتشف وجود الشر الى جانبه ، فلا يحاول مقاومته أو دفعه ، وانما يستسلم اليه مذعنا وطائعا .

وتتلخص القصة فى أن بلوخين يصل موفدا من موسكو الى بلدة صغيرة ليعمل فى مكتبتها فى اعداد دراسة عن عادات أهل البلدة فى القراءة ، وعن الأساليب التى تتبعها تلك المكتبة فى ارضاء قرائها . ويجد بلوخين فندق البلدة الوحيد مكتظا بالنزلاء . فيحار فى أمر العثور على مأوى ، ويضطر الى الاستعانة باهل المكتبة علهم يجدون له مكانا ينزل فيه . ويبعث به هؤلاء ، الى سيدة الفت أن تؤجر بعض الغرف فى منزلها للغرباء .

ويمضى بلوخين الى منزل السيدة ، ويستأجر غرفة فى منزلها ليجد نفسه بعد قليل ، وجها لوجه ، أمام الشر والخير فى مكان واحد . فالسيدة امرأة عادية أو دون

المستوى ، وهي دميمة الصورة قبيحة الشكل . تتمسك بالآراء الدينية الرجعيـة البالية ، مكتفية بالقشور دون اللباب ، ولكن معها ، وفي نفس البيت ، ابنتها الجميلة الشابة ، التي تعاني من ظلم امها أشد الويلات ، ومن قسوتها ، ما لا مثيل له . فهي سجينة لا تسمح لها امها بالخروج من المنزل ، كما لا تسمح لها بالتحدث الى أحد من النزلاء في البيت .

لكنها تتسلل اليه احيانا ، لتسأله عن الحياة في موسكو ، وعن بعض القضايا التي تشغل خواطرها . وسرعان ماتكتشف أمها ذلك ، فتغضب غضبا شديدا وتؤنبهـا اقسى تانيب ، وتتحول الى بلوحين مطالبة اياه بزيادة الأجر ، كما ترفض ان تؤدي له الخدمات المادية التي تقدمها كل صاحبة منزل للساكنين عندها .

وتسود الحياة في عينيه ، ويصبح احتمالها أمرا عسيرا يكاد يخنقـه ، فيقرر الرحيل عن البيت ويرحل فعلا ، وان كان قد أحس بالواجب الملقى على كتفيه في انقاذ الفتاة من هذا الجحيم الذي تعيش فيـه ، وتحريرها من الظـلم الذي يجثم على صدرها . لكنه لا يعمل شيئا ، وانما يكتفي بالجلوس في مكتبته ، مكبا على أعمـاله العادية ، في الوقت الذي تجتاحه هذه العواطف الجياشة المتعلقة بتلك الروح الانسانية « التي يراها تدمر الى جانبه دون ان يتمكن من انقاذها » . وتظل صاحبة المنزل في مكانها السيدة المسيطرة على الفتاة التي تذبل كالزهرة في سجنها .

***

وتنتهي القصة عند هذا الحد . وهي تخلو كما يتضح للقارىء من كل قيمـة ايجابية سوى تلك الصور الرائعة التي يرسمها لأعماق النفس البشرية ، ولذلك العالم المظلم الرهيب الذي تعيش فيه تلك الزهرة البريئة . . . ولعل هذا التقاعس من جانب الكاتب عن ايجاد الحل ، هو الذي حمل النقاد على اتهامه بالتشاؤم .

ويقيم كاراكوف الدليل على ان الحب اصبح موضـوعا مالوفا لدى الكتـاب السوفيات الجدد الذين اولوا الحياة الخاصة والمشـاعر الانسـانية جل عنايتهم او اهتمامهم . ولم تكن قصة « الأزرق والأخضر » ، الا قصة حب فعلية بين اليوشا وليليا ، منذ اللحظة التي التقيا فيها لأول مرة في موعد فرضه القـدر ، تمثلت في سلسلة متلاحقة من المطارحات الغرامية والقبلات ، والصد والعتاب ، الى ان تنتهي القصة التي يرويها الكاتب على لسان بطلها اليوشا ، بظهور رجـل ثالث يقع في حب ليليا ، فتتزوجه ثم تسافر معه الى الشمال ، مخلفة حبيبها الأول وهو يتجرع غصص الحسرة .

وتتضمن القصة شطحات يرويها الكاتب على لسان البطل ، لا معنى لهـا على الاطلاق ، ولا صلة بموضوع القصة ، فهـو يرى كـل شيء ، ويحاول أن يصفه أدق وصف بكل مافيه من دقائق وتفاصيل ، وهو يفكر بمسائل تافهة لا تستحق منه ان يوليها شيئا من تفكيره . . . ولنسمعه يقول . . . « وعندما نمر باللافتات ، اقرؤها

بعناية . وفى وسع الانسان ان يقرا اللافتات فى طريق العودة أيضا ، فهى تظهر وكأنها أصوات مضحكة » . . . وفى مثل هذه الأقوال التى كثيرا ما تتردد فى القصة ، لا تمثل اية علاقة بين ما يقوله الكاتب وبين موضوع القصـــة ، الذى يبدو وكأنه كل مايراه اليوشا وما يسمعه وما يفكر به فى اية لحظة من اللحظات .

وبالرغم من ان القصة لا تنطوى على اية احداث مثيرة أو غير عادية ، وانما تكتفى

سرد الحوادث الصغيرة التي يمر بها ملايين المحبين في حياتهم اليومية ، فان كازاكوف ينجح في ان يقدم الينا عن طريق ابراز الاثر الذي يتركه الواقع اليومي على وعي اليوشا الساذج ، صورة واضحة عن نمو حب عنيف ينتهي الى حزن عميق ، عندما يفقد العاشق فتاته ، عاكسا لنا الاضواء والظلال ، كما يراها فؤاد بسيط ساذج كفؤاد اليوشا .

ويرسم لنا كازاكوف في قصته « في الجزيرة » صورة حب لا يقل في شقائه عن حب اليوشا ، ولا سيما في نهايته الحزينة فزابافين بطل القصة ، رجل متزوج في الخامسة والثلاثين من عمره ، وتضم اسرته ولدين يحبهما كل الحب . وتوفده الهيئة التي يعمل معها ، في مهمة رسمية الى جزيرة نائية من جزر الشمال ، حيث تقيم جوستيا الفتاة الشابة التي لا تتجاوز السادسة والعشرين من عمرها ، والتي تدير محطة الارصاد الجوية في الجزيرة .

وتشتد الالفة بين زابافين وجوستيا ، وتطول الاحاديث بينهما عن السعادة والحب والحياة والشيخوخة . وتتحول الالفة الى عاطفة ، والعاطفة الى حب جارف ، فيتبادلان العناق والقبل . ولكن هذا الحب المفاجيء ، ينتهي الى نهاية محزنة عندما تحين ساعة الفراق ، ولم تبق امامهما الا ليلة واحدة ، اذ ان زابافين سيستقل مركب الصيد في الصباح عائدا الى بيته وزوجه وولديه .

ويمضي الحبيبان في طريقهما الى المركب وتساله جوستيا « ماهذا ؟ اهذه هي السعادة ؟ » فيرد عليها زابافين والالم يعتصر فؤاده ... « اجل ... اجل ... انها السعادة » ، فتنهمر الدموع من عينيها وهي تقول ... « آه يا الهي » . ويمضي زابافين الى قاربه وحيدا ، وقد خلف فؤاده معها ، ويعود بفكره اليها فيقول ... مخاطبا نفسه ... « اذن هذه هي السعادة ! وهذا هو الحب ! آه ، ما اغرب الحب!! »

ولا يعنى كازاكوف في قصته هذه بمعايير الحرب الخلقية ، وانما يحاول ان يرسم ، دون ان يدين احدا ، دقائق ما يحس به رجل وامراة ، ربطتهما علاقة حب قصير وعابر ، وان يضمن لوحته ، مزيجا من مشاعر الحب والسعادة والمرارة والالم .

***

اما يوري ناجيبين ، فقد ولد في عام ١٩٢٠ ، ودرس فن التصوير السينمائي وعمل ابان الحرب العالمية الاخيرة في الجهاز السياسي للجيش السوفياتي ، ثم اصيب بجراح ما لبث ان شفي منها ، ليتحول الى مراسل حربي . وقد نشر قصته الاولى في عام ١٩٣٩ وصدرت له منذ ذلك التاريخ ست مجموعات قصصية ، كما تضمنت مجموعة الآثار الادبية التي نشرتها « مجلة موسكو الادبية » في عام ١٩٥٦ ، قصتيه « حلية الخرز » و « ضوء من النافذة » ، واثار نشرهما الكثير من التعليقات لتعارضهما مع الاتجاه الستاليني الذي ظل سائدا حتى ذلك التاريخ .

وهو يشبه في افكاره ، كاراكوف تمام الشبه ، فهو يكثر من الحديث عن الحب ولا سيما ناحيه الالم فيه . فقد رسم في قصته « الحب » ، صورة حب بريء ، حمله ايجور ، الفتى الريفي ، لفتاته ناستيا . وقد بدات القصة عندما كان ايجور في التاسعة من عمره ، اذا احب فتاته بالغ الحب . ثم اضطرته ظروفه الخاصة الى مغادرة القرية الى المدينة لاستكمال دراسته . ويبدو انه طيلة اقامته هنالك ، لم يسطر حرفا واحدا الى حبيبته ، كما لم يتلق اي انباء عنها . فعندما عاد الى القرية بعد استكمال تعليمه ، عرف ان ناستيا قد غادرت القرية ، بعد ان وقعت في غرام رجل بارز اوقعها في شباكه ثم ما لبث ان تخلى عنها . ولا يترك ايجور زاوية الا ويطرقها بحثا عن حبيبته الى ان عثر عليها ، وهي تعمل في غسل الاطباق في احد فنادق المدينة ، بعد ان فسدت روحيا وجسديا . ويتكشف له اثناء حديثه اليها ، انها فقدت براءتها ، وانها تنظر الى الحب نظرة متشائمة ، بعد ان اكتشف الغموض حياتها ، وبعد ان تعلمت الكثير من طرائق الحياة التي لا توجد في القرية البسيطة . . . انها تقول له . . . « آه ، يا ايجور ، كيف يعيش الناس ! ان الانسان لا يكاد يتصور ذلك حتى في احلامه » . ويرد عليها ايجور قائلا . . . « ان الناس يحيون حياة جدية ، مليئة بالمتاعب والمشقات » .

ويعرض ناجيبين في عدة صفحات طافحه بالملاحظات الدقيقة التاثرات التي يتعرض لها ايجور ، فهو يجد لاسباب لا يستطيع فهمها ، انه لم يعد يحب فتاته التي فقدها ، وانما يحب ناستيا الجديدة والغريبة عنه ، التي لا يكاد يعرفها ، بل ويجهل كل شيء عنها . ويطلب اليها ان تعود اليه . فتهرأ به مستهترة . وتكشف عن تدهورها الخلقي ، في حلقه من الحوار الوضيع مع صديقه لها يدور محوره حول حب ايجور . ولكنها تصاغ لرغبته اخيرا ، وبعد سلسلة طويلة من الالحاف والصد فتعود اليه .

ونحن نرى ناجيبين في قصته هذه ، يرفض كرميله كاراكوف ، الاستجابة لما في التفاسير المبسطه للأوضاع من اغراء واستهواء . فهو يعرض الصورة الدقيقه الكاملة لانحراف ناستيا واعوجاجها ، دون ان يزخرف الواقع او يزوقه ، وهو يرى ان الطبيعة البشريه شيء معقد يثير حيرة الانسان ، كما يرى ان العوامل التي تؤدي الى الضعف والشقاء ، والفشل في الفهم ، عديدة وقوية .

وتصور قصته « المنصة الصخرية » ، حب فتاة تعيش في عزلة ، تفوق تلك التي كانت تعيشها ناستيا بطلة قصة كوراكوف التي ذكرناها قبل قليل . وتدور القصة حول عالم في طبقات الارض ، يذهب في بعثة علمية الى المناطق الجبلية الشاهقة المحاذية لحدود افغانستان ، حيث يلتقي كاتيا ، الامراة الشابة التي تحتل وحدها ، محطة التجارب النباتية ، ويعرف منها عرضا انها كانت قد احبت اثناء دراستها الجامعية . فتى ضعيفا لا يعرف معنى المسؤولية . واضافت انها تمكنت بعد مجيئها الى هذه المحطة النائية في حمله على المجيء للعمل معها ، ولكنه احس بالملل ، بعد بضعة شهور ، وفر مخلفا اياها وحدها . ولكنها لم تيأس ، فواصلت البحث عنه

حتى عثرت على عنوانه ، فكتبت اليـــه ، ولكنه رد عليها بالرفض فى رسالة ؛ حملها العالم الحيولوجى اليها .

ويفترق العالم الشاب عن كاتيا تاركا اياها وحدها فى محطتها النائية تبكى وحدتها واملها الضائع ، وليس لها ما يسليها الا صحبة بعض الحيوانات الداجنة ، التى كثيرا ما تحدثت اليها ، مفضية اليها بلواعج فؤادها .

لكن القصة ليست محزنة فى مجموعها . فكاتيا امراة شجاعة باسلة ، وهى تعمل كل ما وسعها من جهد لاخفاء حبها والمها ، مستمرة فى عملها بجد ومثابرة . ولكن ناجيبين ، يعالج مثل كاراكوف ، هذه العواطف المتشابكة ، وكانها مواضيع تستحق الدرس والغوص العميق فى البحث .

وتدور وقائع قصصه فى معظمها ، فى اوساط الصيد . ومن اشهر قصصه عن الصيد ، قصة « الصيد الاخير » ، التى تحدث فيها عن رجل طعن فى السن الى الحد الذى دفع زوجته الى التفكير بان الصيد لم يعد مامون العواقب بالنسبة اليه ، مما جعلها تخفى عنه بندقيته . ويبكى الرجل حزنا « على بندقيته . فترثى زوجته لمرآه وتعيدها اليه . ويخرج الى الصيد من جديد . ويصف لنا الكاتب مغامرته هذه ثم يوحى الينا بان الرجل العجوز سيموت . ويحنى الصيـــاد العجوز ليلتقط بعض « الزاد » ، فيشعر بالدوار ، ويطنين فى اذنيه ، ثم يعود فينتصب واقفـــا » ويمضى الى الغابة ، وقد سيطرت عليه حالة نفسية غريبة ، هى نتيجة تفكيره بالموت . وتهتز الارض تحت قدميه ، كما اهتز السرير تحته وهو طفل ، ثم يمضى فى طريقه متجهـــا الى هدفه الذى لن يصله .

ولعل من الطريف ان بعض النقاد « السوفيات » قد قارنوا بين هذه القصـــة . وبين قصة همينجواى « العجوز والبحر » ، وهم يقولون ان قصة همينجواى ، كانت متشائمة فى نهايتها ، وان عجوزه فشل فى محاولته ، بينما نجح عجوز ناجيبين فى صيده الاخير . لانه حمل بعض البط معه .

وكتب ناجيبين قبل بضع سنوات فصـــلا « تمثيليا » اسماه « فى السيارة » . وتدور حوادثه حول فتاتين تستقلان سيارة عامة . وكانت كبراهما فى طريقها الى رجل تعتزم العيش معه دون زواج . اما الصغرى ، فتعرف ما تعتزمه رفيقتهـــا ، وهى تنظر اليها نظرة فيها الكثير من مشاعر الاعجاب . والاحترام والخوف على مستقبلها . وليس فى هذا الفصل التمثيلى اية احـــداث مثيرة او غير مثيرة على الاطلاق ، اذ ان الفتاة الكبرى تترك السيارة وتذهب الى موعدها ، بينما تظل الصغرى تتطلع اليهـــا والسيارة تبتعد عنها . ومثل هذا الوضع شائع ومالوف ، لكن الحركة فى القصـــة داخلية ، اذ انها العلاقة النفسية بين الفتاتين . ولا سيما ما يدور فى خلد الصـــغرى من مشاعر الاهتمام والقلق .

وفى قصة « باقليك » ، يصور لنا ناجيبين شابا نشأ فى كنف امه الثيب ، وقد ظل تابعا لها طيعا لأمرها . ويبدو الفتى فى هذا الوضع « الفرويدى » التقليدى ، مختنثا مفتقرا الى الصلابة وسهلا على القياد . ولكنه سرعان ما انقلب فى الحرب الى جندى شجاع ، أبلى بلاء حسنا فى الدفاع عن وطنه ، ومات ميتة الأبطال . وبالرغم من هالة التمجيد التى أضفاها ناجيبين على بطله ، الا انه ظل امام رفاقه «باقليك» ، الشاب المدلل الذى تدعوه امه بهذا الاسم المصغر عن « بول » تحببا ، مما يشير الى تعلق ناجيبين بمتناقضات الحياة الانسانية .

***

هذه نظرة عاجلة الى هذين الكاتبين القصصيين الطالعين . لكن هناك كتابا آخرين يسيرون على نفس الطريق . ويجد المرء فى مختلف الصحف الأدبية قصص المغامرات والحركة النابضة . وتدور احداث الكثيرات من هذه القصص فى بلاد اجنبية ، وأماكن غريبة . ولا ريب فى أن القارىء السوفياتى الذى استمع الى انواع المواعظ ، يجد فى هذه القصص طرافة تخرجه عن الرتابة الخالدة فى الحياة السوفياتية . ولم تكن قصة « الملجأ السرى فى الغابة » لكورابينوف الا صورة لمغامرات حرب المقاومة التى قامت بها العصابات السرية ضد الالمان أما قصة « قهوة على طريق بودابست » لليونيد بيرفومايسكى ، فتصور حياة شيوعى مجرى ، فر الى الاتحاد السوفياتى بعد فشل ثورة بيلاكون ، ليصبح جنديا سوفياتيا . وعندما احتل الروس بودابست ابان الحرب الأخيرة ، راح يبحث عن امه التى خلفها عند فراره فيها .

وهناك طراز آخر من القصص اثار الكثير من التعليقات فى روسيا ، وهو يضم تلك التى تثير المشاكل الدينية والاجتماعية ، ثم تقترح حلولا تتعارض مع قواعد السلوك الرسمية . وقد كسب بيرجى نوروتين الشهرة بقصتين من هذا الطراز تحدث فى أولاهما وهى « الدانوب الأزرق » ، عن نمو العداء بين رجلين الى الحد الذى دفع باحدهما وهو ايفان الى تحطيم فك الآخر وهو نيقولاى بلكمة من يده . وبدين القضاء ايفان فيحكم عليه بالسجن ثمانية عشر شهرا يقضيها ثم يخرج من سجنه ليقصد نيقولاى راغبا فى الاعتذار اليه ، ولكن هذا يخشى هذه الزيارة المفاجئة فيبادر خصمه قبل أن يعرف حقيقة هدفه من الزيارة بطعنة من مديته تؤدى به الى السجن أيضا مخلفا وراءه زوجته واطفاله .

ويعرض نوروتين فى قصته هذه مشكلة المنافسة المتزايدة بين رجلين على انها شىء يجافى العقل والمنطق وانها اشبه ماتكون بالقدر الذى يحكم على منزل بالانهيار . فايفان لا يفهم كيف نشأ العداء بين الناس . ولماذا يكون وجوده أمرا حتميا . والقصة باحداثها صورة الى تزايد الكراهية بين رجلين كانا فى السابق صديقين حميمين ، ثم اخذ كل منهما يرى فى رفيقه ، الشخص المذنب المسؤول ، وفى نفسه البرىء من

كل ذنب . ولا ريب أن كل من يقرأ القصة لابد أن يتساءل ، ترى أين تقع الخطيئة حقا ؟ ومن المسؤول عنها ؟ انه ليس الانسان ، وانما هي الظروف أو القدر ، أو انها تلك القوة الشريرة التي لا تقاوم في الطبيعة الانسانية .

ويثير فورونين في قصته الثانية « العودة الى البيت » قضية أخرى أكثر تعقيدا . فالبطل جندي سوفياتي ، يعود الى قريته من أسر الألمان ، ويجد أن شخصا آخر يدعى فاسيلي ، يعيش هانئا في بيته مع زوجته وأطفاله . ويتذكر البطل ، أن فاسيلي هذا ، كان يعمل حارسا على الأسرى الروس عند الألمان . فيحدثه ويعترف هذا بالحقيقة ، متوسلا اليه الا يشي به ، وهو يقول ... « كنت اريد ان اعيش » . وهكذا يصور الكاتب قصة اولئك الذين ضعفوا عندما واجهوا الموت فحاولوا بلادهم وتعاونوا مع الألمان ، ثم نجحوا في العودة الى صفوف الروس واخفاء حياتهم .

وبات لزاما على البطل ان يقرر ، هل يحطم حياة فاسيلي واسرته ، أو يترك القرية دون ان يشي به . ويحدث نفسه قائلا .. « لقد انتهت الحرب منذ سنوات طوال ، ولكنها مازالت دائرة في حياتنا . وليس في وسعي ان افعل شيئا مع فاسيلي ، فهو يستثير اشفاقي ، كما اشعر نحوه بشيء من المرارة » .

وقد أثار هذا الموقف المارق المطوف على رجل خائن ، سخط الكثيرين من القراء .

ولعل من اجمل القصص السوفياتية الحديثة قصة « راس السنة » التي نشرها كاتبها فلاديمير دودينتسيف في يناير عام ١٩٦٠ . ولا تمثل اهمية هذه القصة في انها تنطوي على شيء من النقد لبعض مظاهر الحياة السوفياتية ، اذ ان مثل هذا النقد قد ظهر بين عامي ١٩٥٤ و ١٩٥٧ . ويعد هذا التاريخ على نطاق ضيق في قصص الكثيرين من الكتاب السوفيات . وليس المهم في قصة دودينتسيف ما يقوله ، بل ما يحاول قوله ، اذ انه لم ينجح في أن يقول كل ما اراد قوله . ولعل قصته هذه ، هي أول قصة بعيدة عن الواقع تنشر في روسيا السوفياتية في السنوات الاخيرة . فهي تصور عالما غريبا ، نصفه يعيش تقريبا في ظلام دامس ، ويستعمل الرموز والاستعارات ، ويجمع بين الخيال والواقع . وبطل القصة عالم يعمل في تكييف اشعة الشمس ، لخلق مصدر من مصادر الطاقة لاولئك التعساء الذين يعيشون في ذلك النصف المظلم من العالم . وتبدو هذه القصة الطوبائية في بعض أجزائها وكأنها من وضع طالب موهوب ، لم يصل مرتبة التخرج بعد . ولا ريب في ان « اليوم » الغريب الذي يطوف بالمكان ، هو جزء من الصورة ، اذ يكثر ظهوره بشكل يتجاوز حدود الطبيعة .

وقد تختلف الافكار الرئيسية في القصة ، كالبحث الفردي عن الاكتفاء الذاتي والثراء والحب ، مع العقيدة السوفياتية ، لكن مظاهرها الأخرى كنجاح البطل في تحقيق رسالته ، وشفائه من مرضه ، واختفاء « اليوم » والسعي الدائب لمساعدة المحرومين في العالم المظلم ، فطواهر تنسجم كل الانسجام مع العقيدة . ولا ريب في أن هذه القصة ، بالرغم مما فيها من فجاجة هجينة ، تمثل بما فيها من ابتكار حدثا هاما في الأدب السوفياتي يرمز الى تطور لا بد وان يسير في طريقه ، ليعود بالقصة الروسية الى سالف مجدها في ايام تشخوف ودوستويفسكي وامثالهما من عمالقة القصة العالمية ...